الثقافة "مشروع بقاء"

و"مفرداتها" يجب ألا تكون سلعاً في السوق

أحياناً يخيل إليّ أننا نحن الذين نطلق النار على ثقافتنا. ولكن، لأنها أقوى منا بما لا يقاس فهي تتجرح من رصاصنا، وقد تنزف.. لكنها لا تتعطب ولا تضعف ولا تضمحل ولا تموت.

قد يكون السؤال الأول الذي سيخطر بذهن القارئ: من تعني هذه الـ"نحن"؟! أو ربما كان: ما معنى (إطلاق النار) ذلك، وكيف؟!

وكي لا نسترسل ونطيل، نقول: إن هذه الـ"نحن" تعني أكثرية المشتغلين بالفكر والأدب والفن، مثلما تعني أكثرية المسؤولين عن المنابر الثقافية، وأكثرية العاملين في النشر وتسويق النتاج الثقافي على حد سواء.

إن المشتغلين بالفكر والفن والأدب مازالوا يعانون من "مرضهم العزيز" المزمن: مرض الشللية، حيث (الشلة) تطبل وتزمّر لمن هو منها، أو من تراه قريباً إليها أو مقرباً.. فإذا الكويتب يصبح-بقدرة قادر- كاتباً عبقرياً أو كاتباً كبيراً في الحد الأدنى! والأمثلة أكثر من أن تعد أو تحصر!

والشلة قد تكون حزباً، وقد تكون مجموعة من مرتزقة الكتابة، وقد تكون حتى مجموعة من الأصدقاء ذوي النوايا الطيبة والأفق المحدود. وفي النتيجة لا يختفي من يستحق الظهور والإظهار، ويظهر من لا يستحق غير المكان الوسط في أحسن التقديرات، وحسب.. بل يبدو الجميع وكأنما قد ضيعوا الأساس الذي يعطي "الكتابة" فاعليتها ومصداقيتها وهو: أن من يمارسونها هم أصحاب "مشروع ثقافي" في الأصل.

والعاملون في النشر وتسويق الكتابة يسري عليهم ما يسري على أولئك، مع عدد من الإضافات التي من أهمها مسألة (الربح) كيفما جاء، وكيفما اتفق.

أما المسؤولون عن المنابر الثقافية فأمرهم–إلا من شاء له ربك أن يكون مثقفاً حقيقياً يرى في عملية الإنتاج الثقافي وتطويرها "مشروعاً" ونهجاً رؤيوياً معرفياً متكاملاً– هو أمر أقسى وطأة وأشد ضرراً، وكذلك بالتالي أمر منابرهم، على اختلاف تسمياتها وأشكالها ومستوياتها ومناشطها.

في الدراما التلفزيونية مثلاً، تقحّم الكثيرون هذا الفن الصعب.. ولكن، إذا استثنينا عدداً غير كثير من الأعمال الدرامية فما الذي يتبقى لدينا سوى (تخبيصات) في التاريخ أو حركة الواقع أو بنيانات النفس الإنسانية... إلى آخره؟!

كاتب الدراما يجب أن يكون "موسوعياً" بمعنى ما من حيث المعرفة، ويجب أن تكون عناصر "موسوعيته" منتظمة في سياق متكامل: رؤيوي وجدلي وهادف ومنفتح. إنه لا يكتفي بجمع المعلومات "وفبركتها" على مقاس مقولة أو مقولات مسبقة الصنع، بل عليه أن يدرك مناخات الأحداث المختلفة وتوجهات

المجموع العام لعناصر حركة التاريخ أو الواقع، ومعنى البنيانات التي تتشكل في أطرها تلك العناصر.. ثم يستلهم ذلك كله لصياغة عمله.

وكاتب الدراما يجب أن يكون روائياً في الأساس، يشتغل التخييل لديه بعلوّ فانتازي شفاف وقابل لصوغ الإسقاطات دلالياً، وليس ميكانيكياً، متيحاً بذلك للغة الكاميرا أن تقود الحركة والمنطوق المشهديين بالجدارة المطلوبة دون أن تحل محلهما، أو تسمح لهما بجرها إلى الخذلان.

فأين ما صرنا نراه من هذا كله أو من بعضه؟!.. وبالطبع، نحن نضع خارج السؤال "محرمات" طريق الربح التي تفرضها جهات عربية تحدد بأموالها قواعد السوق والتسويق، وكان الأجدر بها أن تطور مفهوماتها هي، وقواعد عملها هي، في مواجهة تحديات عالمنا الراهن الذي تلعب التلفزة دوراً خطراً في توجهاته المستقبلية، وبالمناسبة إذا كان العرب لم يستطيعوا-حتى الآن- إنجاز الحد الأدنى من التضامن السياسي في مواجهة تلك التحديات، فلا أقل من أن تقوم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بإقرار قواعد مشتركة- وملزمة إن أمكن، لكل الجهات العربية المعنية- تجعل عمل التلفزة العربية فعالاً، ولو في الحد الأدنى، أمام محاولات الاكتساح في هذا الميدان، والزاحفة على المشاهد العربي من كل حدب وصوب.

يعني.. ألا يحق لنا أن نتوقف لنتساءل: لماذا كل هذا التطبيل والتزمير "للتخبيصات" الدرامية- وحتى البرنامجية المرئية- ولأصحابها من "المخبّصين" الذين ما يكاد نفر منهم ينجز "تخبيصة" واحدة حتى تقام له الأعراس المدائحية التي لا تتوقف

حتى تميل "كفة الحظ" إلى مخبّص جديد آخر؟!

فإذا غادرنا التلفزة إلى الصحافة الثقافية المقروءة فما الـــذي نجده؟!

بالطبع، ما عاد إلا قلة يتذكرون سجالات السبعينيات الغنيـــة في صحافتنا حول "كليات" الثقافـــة، وتفصـــيلاتها المفهوميـــة، ومنجزاتها الإبداعية، وحركتها الإجرائية.. إلى آخـــره، واليـــوم تسود نغمة أن (العمل الصحفي الثقافي هو متابعة ميدانية)!. لأي شيء؟!.. للضحالات الطافية على السطح، بصورة عامة طبعاً!!

ونسلّم بأن متابعة الحركة الإجرائية للثقافة أمر مهـــم فعـــلاً، ولكن، هل يمكن الاكتفاء "بالمفردات" دون استحضار "الكليـــات" وربطها بها أو العكس، مع رفع وتيرة الحوار حول ذلك كله، إذا أردنا في النهاية ثقافة حقيقية؟!

إن حضور ذوي التجارب الطويلة والكبيرة من كتابنا، وذوي التجارب المتوسطة، وأولئك الذين لا يزالون في بداية الطريق.. حضورهم معاً ودائماً في صحافتنا الثقافية، لهو أمر ضروري إن أردنا ألاّ (نطلق النار) على ثقافتنا، ونحول العمل فيها من "العمل في مشروع وعي هادف" إلى أبواب تكسّب وارتزاق بما لـــذلك من نتائج، وإن أردنا أن تستمر ثقافتنا فـــي الحيـــاة والاغتنـــاء والارتقاء.

ويبقى أن نسأل: ما هو الاعتبار الحقيقي لكلمة "ثقافة" لـــدى غالبية القيمين على الصحافة الثقافية؟!

أما السؤال الأهم فهو: ما دام العمل الثقافي عندنا يعامـــل- مادياً- كما لو أنه "زائد على الحاجة" أو "لاجئ في تكية" فلمـــاذا لا تهاجر أقلام كتابنا إلى حيث يمكن لأصحابها أن يحصلوا على

بعض خبزهم، رغم مطلبات هذه الهجـــرة ومزالقهـــا؟! إن مـــا عرضناه هو قليل من كثير عن أساليبنا في التعامل مـــع ثقافتنـــا الآن، وهو دعوة للحوار حول هذه المسائل وغيرها. فرغم كـــل شيء: ثقافتنا ليست في وضع (المصاب بالخطر القاتل)، ولكـــن لابد من العودة إليها وإلى مشـــكلاتها باســـتمرار لتظـــل دائمـــاً "مشروعاً منفتحاً لصناعة الوعي الهادف".. مشـــروعاً لا يمكـــن ضمان بقاء وجودنا وارتقائه من دونه.

❑❑